

الفصل الثاني



كان والدي ترايبويل مشهوراً جداً في شبابه. إنه مُزارع الآن، شأنه في ذلك شأن والده وجدّه من قبله. فمجرد أن تولّد مالاوياً، هو أمر يجعلك مُزارِعاً بصورة تلقائية. أعتقد أنّ الأمر منصوص عليه في مكان ما من الدستور، وكأنّه قانون متوارث من أيام النبي موسى. إن لم تكن ترعى الأرض، فإنّك تبيع وتشتري في السوق. يُذكر أنّ والدي - قبل أن يهب الأرض نفسه، كان يعيش حياة مفعمة بالحيوية والمغامرة بعمله تاجراً متجولاً.

كان ذلك في أثناء إقامته في دوا؛ البلدة الصغيرة الواقعة جنوب شرق ماسيتالا، التي تجثم عالياً بين التلال السُّمر. ففي سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته، كانت دوا مكاناً ينبض بالحياة، حيث يمكن لشباب جني كثير من المال. كانت مالاوي حينئذٍ تحت حكم هاستينغز كاموزو باندا؛ وهو متسلط قوي حكم البلاد أكثر من ثلاثين عاماً.

كان المالايون كافة يعرفون قصة باندا مع تقدّمهم في السنّ. فعندما كان باندا صبياً صغيراً في كاسونغو، يعيش في ظلال جبل كبير حيث هزم شعبٌ تشيوا شعبَ نغوني، مشى هذا الصبي حافياً ألف ميل، حتى وصل إلى مناجم الذهب في جنوب إفريقيا للعمل هناك. ثمّ مُنح لاحقاً منحة للدراسة في بعض جامعات إنديانا وتينيسي، حيث نال هناك شهادة في الطب. بعد ذلك، عمل طبيباً في إنجلترا قبل أن يُقرّر العودة إلى مالاوي لتحريرنا من الحكم البريطاني. وبذا، فقد أصبح أول قائد عظيم لبلادنا. وفي عام 1971م، منحه برلماننا لقب رئيس مدى الحياة بعد ضغوطات كبيرة.

كان باندا رجلاً شديداً بحيث طلب إلى تجار مالاي كافّة تعليق صورته في متاجرهم؛ على الأُتْلُقِ أيّ صورة في مكان أعلى منها. وفي حال لم تُعلّقْ صورة لرئيسنا الغالي، وهو يلبس بزّة من ثلاث قطع ويحمل مضرب ذباب، فقد كنت تدفع الثمن غالياً. كانت تلك حقبة مخيفة ورابكة من تاريخنا. وقد منع باندا أيضاً النساء من ارتداء السراويل أو أثواب فوق الركبة. أمّا الرجال فكان شعرهم الطويل يؤدي بهم إلى السجن. في حين كانت القُبُل ممنوعة في العلن، حالها حال الأفلام التي تحوي مشاهد من هذا القبيل.

لقد كره الرئيس التقبيل لدرجة أنّ الناس يخشون - حتى هذه اللحظة - تبادل القُبُل على مرأى من الآخرين. والأدهى من ذلك، رجال الشرطة والمخبرون (عصابة السفاحين التابعة لباندا) الذين كانوا يلقون القبض على كلِّ مَنْ يُشكِّك في سياساته. وقد أفضى ذلك إلى زجّ كثير من المالايين في السجن، وتعذيبهم، وحتى رميهم في حفر تحوي تماسيح جائعة.

وعلى الرغم من ذلك كلّهُ، فقد كان التجار يعيشون حقبة تميّزت بالنشاط والانتعاش الاقتصادي. وقد روى والدي قصصاً عدّة عن التطفل بركوب الشاحنات عبر الأرياف وصولاً إلى بحيرة مالوي، حيث كان يشتري حزماً من السمك المجفّف، والأرز، والثياب المستعملة لبيعها في سوق دوا. يُذكَر أنّ بحيرة مالوي هي من أكبر البحيرات في العالم، وتشمل النصف الشرقي من البلاد. إنّها كبيرة كالمحيط. وقد شاهدتها أول مرّة حين كنت في سنّ العشرين، مع أنّي ترعرعت في مكان يبعد عنها مسافة ساعتين فقط. ولكن، عندما وقفت على ضفافها آنذاك، ونظرت إلى مياهها اللامتناهية، سرعان ما راود قلبي شعور بحب غامر تجاه بلدي.

كان التجار في وقت ما يتنقلون بوساطة البحيرة إلى مدن نكهوتا كوتا وماغوتشي على متن سفن بخارية، مثل: إيلالا، وتشاونسي مايلز، يُقدّم فيها طعام شهّي، وما ترغبه الأنفس، وفي ذلك الشرب، والرقص على السطح في أثناء الرحلة. وقد اعتاد والدي عقد المقايضات عند البحيرة مع رجال أعمال مسلمين من شعب ياو، الذي سكن ذلك الجزء من البلاد.

وصل شعب ياو إلى مالوي منذ أكثر من قرن من الزمان، عن طريق بحيرة في موزمبيق. وقد أقنعهم عرب زنجبار آنذاك على اعتناق الإسلام، ثم جندوهم لاحتلال شعب تشيوا – الذي أنتمي إليه – وجعل أفراد عبيداً. لقد غزوا قرانا، وقتلوا رجالنا، وأرسلوا نساءنا وأطفالنا إلى مالوي في قوارب عبر البحيرة. وما إن وطأت أقدامهم أرضها حتى اتُّخذوا عبيداً، وقيدوا من أعناقهم، وأرغموا على السير مشياً عبر تنزانيا. استغرق هذا الأمر ثلاثة أشهر، فقد أغلبهم خلالها حياته قبل الوصول إلى المحيط. بعدئذٍ عمد شعب ياو إلى القبض علينا والتفاوض مع البرتغاليين لمقايضتنا بالسلاح والذهب والملح.



البابا في أثناء شبابه، يجلس خلف كشكه (الرجل ذو القميص الداكن في الوسط) في سوق دوا برفقة أصدقائه.

ولولا المبشر الاسكتلندي العظيم ديفيد ليفينجستون، لاستمر الخلاف بين شعبي ياو وتشيوا إلى يومنا هذا؛ إذ عمل ليفينجستون على إنهاء العبودية، وفتح مالوي للتجارة، وبناء مدارس وإرساليات جيدة. كما نال الشبان نصيباً من العلم والمعرفة، ما ساعدهم على جني المال. وحين أصبحت تلك الفرص الاقتصادية متاحة للجميع، زالت الخلافات بين الشعبين. واليوم، فإننا نعدُّ شعب ياو أخوة لنا؛ إذ تتحدر أُمي من شعب ياو، وهذا يعني أنني نصف ياو.

روى لي والدي قصصاً كثيرة عن بلدة مانغوتشي الصغيرة الواقعة على الجهة الشمالية من البحيرة، قرب مصب نهر شاير. علماً بأن الطريقة التي يصف

بها هذا المكان، والتي تصوّره كبازار (سوق) في شمال إفريقيا، لم أعرف بشأنها سوى في الكتب التي قرأتُ. كانت الشوارع تغص بالتجار القادمين من شتى أنحاء مالوي، وزامبيا،

وتنزانيا، وموزمبيق، حيث تختلط لغاتهم وأغانيمهم المختلفة برائحة الأجساد المتعرّقة، والتوابل، والسّمك المقلي، والذرة المشوية. وسرعان ما كانت الجيوب المملوءة بالمال تفرغ في أوكار السكر، وفي أحضان سيدات الليل المحترفات، اللاتي كنّ يغيون التجار إلى غرفهن للحصول على حمام ساخن وطعام باهظ الثمن، وأنواع أخرى من المتعة لم أفهمها إلا عندما كبرت. وكان التجار عادةً ينجرفون نحو هذا النوع من الملذات التي زخرت بها هذه الأماكن، فيبذرون انقودهم كلّها على ذلك. وما زال والدي يتذكّر حال بعض هؤلاء الرجال وهم يهربون بعيداً، مرتدين سراويلهم الداخلية فقط.

ترك كثير من أولئك التجار زوجةً وأطفالاً في أوطانهم، إضافة إلى المومسات. حدث ذلك قبل أن يقابل والدي والدي، حين كان شاباً يشغله الترحال عن الالتزام بزوجة وعائلة. نعم، كان لديه بعض العشيقات، لكنّه عموماً بقي بعيداً عن فتيات الحانات. وقد أفضى تردّده في التعامل مع أمثالهن إلى جعل الناس في السوق يمنحونه لقب البابا. وكثيراً ما كانوا يغيظونه مستخدمين كلمة من لغة تشيتشيوا (يا بابا). ما الخطب؟ هل سقطت عن شجرة باباية وحطمت خصيتيك؟ لا تصغ إلى أمك؛ هؤلاء الفتيات لن يحرقنك!

كان والدي يتحمّل سماجتهم تلك؛ فلم يكن لديه خيار آخر. وسرعان ما التصق اللقب بوالدي، لدرجة أنّ أحداً لم يعرف أول من تلفظ به.

كان والدي رجلاً ضخماً، وكانت قدرته على معاقرة الخمر هائلة. وذات ليلة، دخل والدي برفقة عدد من أصدقائه إلى متجر (بقالة) دوا العام عند الساعة الخامسة مساءً، وقال بعدها: إنه شرب ستاً وخمسين زجاجة جعة تحمل علامة (كارلسبيرغ)، ثم عاد إلى البيت عند الثانية صباحاً، وروى ما حدث. كانت جلسات الشرب تلك تقود أحياناً إلى شجار بالأيدي، الأمر الذي كان يعدّه والدي نوعاً من الرياضة.

ذكرت فيما مضى أنّ والدي كان أحد أشهر التجار في المنطقة، لكنّ تلك الشهرة لم يكن مردّها الحنكة في التجارة فقط، أو القدرة على شرب صنديق من الجعة. لقد عدّ والدي أسطورة لقوته. ويوجد لدينا مثل في مالوي يقول: رأس واحدة لا ترفع سقفاً. أعتقد أنّهم لو عرفوا والدي لما قالوا ذلك.

نحتفل - نحن معشر المالويين - في السادس من شهر تموز كل عام بعيد الاستقلال عن إنجلترا، تماماً كما يفعل أخوتنا في الولايات المتحدة في الرابع من الشهر نفسه. نحتفل أيضاً بهذا العيد بطريقة تشبه الطريقة المتبعة في الولايات المتحدة؛ حفلات كبيرة تملؤها الموسيقى، والرقص، واللحم المشوي اللذيذ. في أحد تلك الأعياد، جاء عراب موسيقا الريجا في مالوي روبرت فومولاني للغناء في قاعة منطقة دوا، فصمم والدي (كان حينها في سنّ الثانية والعشرين) على حضور الحفل؛ إذ كان روبرت فومولاني المغني المفضّل بالنسبة إلى والدي، الذي تميّزت أغانيه عادة بوصف الصراع الذي يخوضه الفقراء، وبكلماتها المستمدة من تربة مالوي الدافئة. وكان والدي قد حضر عروضاً لفومولاني قبل ذلك في كلّ من: كاسونغو، ولبلونغوي، ونكهوتاكوتا، ونشيسي، وكان هذا المغني يرتدي كلّ مرّة قميصه الأبيض المشهور الذي يجعله يبدو أنيقاً.

بدأ طابور (صف) الراغبين في حضور حفل فومولاني يوم الاستقلال بتكوّن في وقت مبكر، يتزامن مع وقت دخول والدي الحانة في المتجر العام. مرّت ساعات على وجوده هناك، وحين خرج متخبّطاً مترنّحاً، سمع صوت فومولاني الجميل يصدح في أرجاء البلدة. لقد بدأ الحفل منذ مدّة، ولا شكّ.

أسرع والدي صوب القاعة ليجد طابوراً من الأشخاص ينتظر الدخول. إذا حدث أن وقفت بجانب إفريقي في مطار أو موقف حافلة، فستعرف حتماً أننا لانحب الوقوف في طوابير. قد نفوّت شيئاً، أليس كذلك؟ لم يضيّع والدي أيّ وقت، فشقّ طريقه إلى المقدمة، ليوقفه شرطي عند الباب، قائلاً: لقد اكتمل العدد. لا يُسمح لأيّ شخص آخر بالدخول. فأسرع والدي ليريه تذكرة الحفل، لكنّ الشرطي لم يتزحزح. ولما كان والدي كان مقدماً، وثملاً بعض الشيء، فقد دفع الشرطي جانباً، وانضم إلى الحشود بسرعة. وهناك اكتشف كم كانت الحفلة رائعة؛ فروبرت فومولاني على المسرح برفقة فرقته التي تُدعى ليكهوبولا ريفر دانس؛ كان يرتدي قميصه الأبيض والجيتار حول رقبتة. أمّا العمّال في الخلف فكانوا منهمكين في شواء ضخم، ويديرون أكشاك كانييا المليئة بلحم الماعز اللذيذ. زدّ على هذا، كانت هنالك كمية كبيرة من جعة كارلسبيرغ.

شعر والدي بالحماس، فحشر نفسه بين حشد الأجسام المتعرِّقة حتى وصل المقدِّمة. كان فومولاني يُغني إحدى أفضل أغنياته التي تُدعى (أختاه)، وهي تتحدث عن زوجته التي تركته.

غنى قائلاً: سيدتي، لا تهينني اليوم لأنني فقير؛ فأنت لا تعرفين ما يخبئ لي المستقبل....

بدأ والدي الرقص، وبدأ أنه نُوم مغناطيسياً بفعل الموسيقى. لكنّه لم يكن يرقص أيّ رقصة؛ فقد كان رجلاً ملبوساً، رجلاً يثق كل الثقة بأنه أعظم راقص على وجه الأرض. أصبحت ساقاه وذراعه رشيقة كالغزال. أمّا جسده الضخم فقفز في الهواء مثل جندب طائر. يا لها من حركات! ولكن، عندما فتح عينيه، أدرك أنّ الموسيقى كانت متوقّفة. كان الجميع واقفاً بصمت. أمّا روبرتو فومولاني، الأب الروحي للموسيقا الوطنية، فكان يحدِّق نحو الأسفل بغضب.

أشار إلى والدي، ثمّ قال: فليبعد أحدكم هذا السكير من هنا. إنّه يفسد عرضي!».

صرخ الحشد: «إنّه هنا! خذوه بعيداً!».

صدم والدي؛ فكيف لهذا أن يحدث؟ كل ما فعله هو الاستمتاع بوقته، وها هو ذا يوبّخ الآن كطفل من بطله العزيز. لقد شعر بالخيانة؛ فعُدّل نفسه، ثمّ أشار إلى المسرح، قائلاً:

سيد فومولاني، لديّ دعوة لحضور هذه الحفلة. جميع المالاويين الموجودين هنا يحتفلون باستقلالهم الغالي على قلوبهم، وأنا أفعل الشيء ذاته. أنا لست الوحيد الثمل هنا كما تعرف. وبعيداً عن ذلك، أليست وظيفتك هنا هي الغناء والترفيه؟

أُحيطت رقعة الرقص بمجموعة من رجال الشرطة والمخبرين المتحفزين للانقضاض.

سيد فومولاني، كل ما أريده هو الرقص بسلام، قالها والدي، ثمّ استدار مواجهاً الشرطة. ولكن، لما كنت طلبت إلى هؤلاء الرجال إبعادي، فأقول لك مرحباً بهم!».

انقض رجال الشرطة على والدي، وانهاثوا عليه ضرباً بالقبضات والمرافق. تراجع الحشد إلى الخلف بسرعة، وحُيِّل للجميع أنهم تولّوا أمر والدي على أحسن وجه. وفجأة، بدأ رجال الشرطة بالتطاير بعيداً عن الكومة كأنهم يصارعون إحصاراً، ثم أخذوا يترنحون في الهواء كأكياس الطحين، وبدأوا يعرجون من الألم. حينئذٍ، ضجّت القاعة بالتشجيع والتصفيق عندما قُذِف آخر شرطي باتجاه الجدار.

صرخ والدي: **مِنَ الآتِي؟ سأقاتلكم جميعاً.**

بعد ذلك، جرّب بعض المخبرين حظهم، فلاقوا المصير نفسه. ثم حاول رجال الشرطة والسفاحون الحكوميون تقييد يدي والدي على مدار نصف ساعة، لكنهم كانوا يفشلون في كلِّ مرّة. وحين خارت قوى والدي بسبب الشجار، وافق أخيراً على أن يُقبَضَ عليه، ليقتضى الليلة في الحبس بعدما قال لهم: **سأخضع؛ لأنني أحترم حكم القانون فقط. ولكن، كان له شرط واحد؛ هو السماح له بتناول بعض من شواء يوم الاستقلال. وبعد التهام طبق شهّي من كانينيا، غسل البابا يديه، ثم ذهب مع الشرطة.**

كانت تلك قصة والدي التي تشاجر فيها مع اثني عشر رجلاً، وتغلّب عليهم.

سرعان ما انتشر خبر هذه القصة في المنطقة؛ فأخذ الناس يقدّمون له التهنئة في الحانات والأسواق الواقعة عند ضفاف البحيرة، وانتعشت أعماله نتيجة لما حدث. استقطبت تلك الشهرة أيضاً كثيراً من اللصوص الذين كانوا يكمنون في الأسواق؛ إذ قالوا لوالدي، **مرّبتين على ظهره: أنت قوي جداً، دعنا نستفيد من قوتك في جمع المال، فنصبح أغنياء جميعاً.**

لكن والدي لم يكن مجرماً؛ فكلّ ما أراد هو العمل بجدّ، لكسب رزقه، وشرب جعة كارلسبيرج. أمّا إذا رغب أحد في الشجار فذلك أمر يمكن ترتيبه.

من جانبه، كان البابا يراقب فتاة منذ مدّة، مع أنّ أصدقاءه لم يلاحظوا ذلك في بداية الأمر. كانت هذه الفتاة تظهر في السوق كلّ صباح في ساعة معينة، ثم تختفي بين الحشود، ثم تظهر بعد ساعة حاملة حزمة من الخضار أو كيساً من الطحين، وتتابع طريقها باتجاه الحيّ الكائن أسفل التل. لقد أصبحت تلك اللحظات المعدودة أهم ما في اليوم بالنسبة إلى

والدي، وكان يحرص دائماً على البقاء في كشكه ليتمكّن من رؤيتها. كان هنالك شيء فيها يغيّره، مع أنّه لم يسمع صوتها قبلاً. هل حزرتن من هذه الفتاة؟ إنّها والدتي، أغنس.

لا شكّ في أنّ والدي لم يكن موفقاً في التمويه؛ فقد كانت والدتي على دراية بنظراته، وبالطريقة التي كان يحدّق بها، والتي كانت أشبه بجرو يناظر باب قنّ الدجاج ولا يدري ما يفعل. لذا، فقد سألت عنه في المنطقة، وعرفت السمعة التي يتحلّى بها. وليسبب ما، جعلتها قصص الشجار والسلوك السيئ تشعر بالإثارة. كانت لا تطيق صبراً، وتضيق بها الحال كلّ يوم حتى ترسلها والدتها إلى السوق. وكانت كلّما دخلت بين صفوف الأكشاك الخشبية، قفز قلبها كطبول تشيودا التي تزف على رقصات الأطفال، لكنّها كانت - في الوقت نفسه - حريصة على عدم إظهار ابتسامتها، وإخفاء مشاعرها؛ فهي لم تكن صيداً سهلاً.

استمرت لعبة التحديق شهوراً عدّة، وكانت والدتي تسأل نفسها: متى سيُقدّم ذلك الرجل على خطوته؟ إذا كان قويّاً وشجاعاً كما يقولون، فلمّ هو خائف منها؟ (بحسب رواية والدي، كانت والدتي أبعد من أن يلحق بها، فضلاً على شعوره بالخوف والرهبة). لذا، قرّرت والدتي - في نهاية المطاف - اختبار هذا الرجل الضخم القوي. ففي صبيحة أحد الأيام، شاهدتها والدي وهي تدخل السوق، لكنّها سرعان ما غابت عن ناظره كما جرت عليه العادة. ولكن، هذه المرّة، فعلت والدتي شيئاً مختلفاً؛ إذ سلكت طريقاً آخر عبر السوق؛ طريقاً يقودها باتجاه والدي مباشرة، حينئذٍ، شعر والدي بالتوتر، لكنّه كان يعلم أنّ تلك الفرصة لن تلوح له مرّة أخرى. تزامت الأفكار في مخيلته، وأيقن في قرارة نفسه أنّ الوقت قد حان. ولكن، ماذا عساه يقول؟ لم يملك وقتاً للتفكير؛ فوالدتي أصبحت جانبه في غضون ثوانٍ. كانت أقرب إليه من أيّ وقت مضى، ورؤيتها جعلت قلبه يخفق بشدّة كأنّه سيقفز من بين ضلوعه.

تحلّى بالشجاعة بطريقة ما، وقفز من فوق نضده، ثمّ صرخ في أثناء مرورها، قائلاً: أنتِ أجمل امرأة رأيتها عيناى! حينئذٍ، استدارت والدتي، أمّا والدي فوقف في منتصف الطريق فاتحاً ذراعيه وعيونه تناظر عينيها.

قال: لقد أحببتك منذُ شاهدتك أول مرّة، وأريدك زوجة لي.

كافحت والدتي للحفاظ على رباطة جأشها، قائلة: عليّ أن أفكر في الأمر؟، ثم استدارت وغادرت.

لم يمنحها والدي وقتاً طويلاً؛ ففي ظهيرة ذلك اليوم، ذهب إلى بيتها طالباً يدها مرّة أخرى. ثم كرّر الأمر في اليوم اللاحق. لكنّ شقيقها الأكبر باكليي حذّرها من والدي. كان باكليي تاجراً في السوق أيضاً، وعلى علم بسمعة والدي. قال لها: إنّه دائم التردد على الحانات، يشرب ويفتعل المشكلات والمشاجرات. أخاه، هذا الرجل ليس بالزوج الصالح. فردّت عليه والدتي، قائلة: لا يهمني ذلك كله؛ فهو قوي جداً، وأنا أحبه.

عندئذٍ، أخبر باكليي والديه بالموضوع. كانت جدّتي روز امرأة صلبة لدرجة أنّها بنت بيت العائلة بيديها، وشيّدت فرناً لصنع الطوب بنفسها، وهو أمر يتعدّد على كثيرين فعله في يومنا هذا، فضلاً على ما أنّه لا يناسب النساء. أمّا جدّي فكان يعمل خياطاً في السوق.

واجه جدّي والدتي، طالبين إليها إيضاح هذا الأمر: أخبرينا الحقيقة حالاً يا آجنس. هل هذا الرجل جادّ في طلبه؟

قالت والدتي نعم، إنّه جادّ حقاً.

وقد تبين - فيما بعد - أنّ جدّي كان قد تقدّم لخطبة جدّتي بالطريقة نفسها تقريباً. ولكن، بعد أن رآها ترقص في إحدى مناسبات القرية. وفي ذلك، يقول جدّي: إنّ الطريقة التي كانت ترقص بها أسرت قلبي. قلت لنفسي: سأتزوج تلك الفتاة. بعد ذلك، أرسل جدّي فتاة صغيرة من القرية لتخبر جدّتي برغبته في التحدث إليها، ثم واجهته جدّتي بنفسها، قائلة: أتريد التحدث إليّ؟ فلتتحدث إذن. ماذا تريد؟

أجاب: أرغب في أن تصبحي زوجتي.

والآن، ماذا بوسع جدّي أن يقول؟ بعد ستة أشهر، تزوجت آغنس والدي، وفي العام اللاحق ولدت شقيقتي آني. لكنّ والدي ظلّ البابا على الرغم من تلك الأحداث كلّها.

لم يغيّر والدي شيئاً من سلوكاته وتصرفاته بعد الزواج، وسرعان ما بدأت حياة السكر التي يعيشها تؤثر سلباً في حياته الزوجية. سئمت والدتي من عودته إلى البيت ثملاً تفوح منه

رائحة الخمر، وكان الجدل والخصام هما سيدا الموقف في كثير من الأحيان. لقد كانت حقيبة مظلمة؛ حقيبة شهدت وفاة بعض أصدقاء والدي المقرَّبين أو سجنهم، واختفاء بعض آخر نهائياً.

ففي بداية الأمر، أُصيب صديقه كافو بمرض السيلان الذي يُعرَف عندنا باسم القنابل، بعد أن نقلت له إحدى مومسات الحانات العدوى. فأصبحت شرايين خصيته متورّمة وعفنة، ثمّ تفجّرت في أحد الأيام، ليموت كافو بعدها. وهناك صديق آخر يُدعى موانزا، تعرّض للضرب حتى الموت في حانة أثناء شجار على إحدى الفتيات. فقد ارتكبت المومس الحديثة العهد في القرية خطأً جسيماً بعدما غازلت موانزا وصديق له في الوقت نفسه؛ إذ اختلفا على مَنْ يحقّ له اصطحاب الفتاة إلى بيته آخر الليل، فقرّرا خوض منازلة. بدأ الأمر بسيطاً، لكنّه سرعان ما انتهى بموت موانزا غارقاً في بركة دم. أمّا المومس فقد هربت قبل أول لكمة.

من جانب آخر، كان هنالك واعظ مشهور في دوا يُدعى الموقر جيه جيه تشيكانكهي، وهو من الزبائن الدائمين لوالدي. كان الموقر جيه جيه راعي إحدى أكبر الكنائس المشيخية في دوا، إضافة إلى خمس وعشرين كنيسة أصغر في المنطقة. وقد جرت العادة أن يتوقّف عند كشك والدي لشراء كيس من الأرز، ثمّ يتجاذب معه أطراف الحديث. وفي أحد الأيام، نظر الموقر عميقاً في عيني والدي، كأنّه ينظر إلى أعماق روحه، ثمّ دار بينهما الحوار الآتي:

— كامكوامبا

— نعم

— هل تعلم أنّ الرب يحبك، وأنّك تخيّب ظنّه كلّما شربت الخمر وتشاجرت واهتعلت المشكلات؟

— شكراً أيّها الموقر. ولكن...

— أبشرك؛ فعلى الرغم من أنّك تخيّب ظنّه، فإنّة على استعداد لاستقبالك. يريدك أن تلجأ إليه.

– شكراً أيها الموقر. كما تشاء. قالها والدي، محاولاً الظهور بمظهر الرجل المؤدّب.

بعد هذه الحادثة بأيام، وبينما كان والدي يشرب – كعادته – في الحانة، اقترب منه رجل وأطاح بجعّته. كان الرجل ثملاً، ويودّ الشجار مع أضخم رجل في المكان. لبّي والدي رغبة هذا الرجل وأكثر. وفي غضون ثوانٍ، كان الرجل مُلقى على الأرض، والدم يتدفّق من أذنيه. أو شك أبي أن يقضي عليه لولا تدخل بعض الحضور. وسرعان ما وصلت الشرطة، لتلقي القبض على والدي.

قال له الضابط: لقد تجاوزت الحدّ هذه المرّة.

كان المدعي العام في دوا شماساً في الكنيسة يُدعى السيد كاييسا، وكان أيضاً أحد الزبائن الدائمين عند والدي. وحين سمع كاييسا أنّ والدي في السجن بانتظار أن يعرّض على المحكمة، نظّم زيارة شخصية له.

قال: كامكوامبا، لطالما نصحتك ألا تخوض هذه النزالات التافهة. سيأتي يوم ما تتعرّض فيه للقتل، أو تتسبّب في مقتل أحد ما، وانظر ما حدث هنا. أنت صديقي، ولا أودّ أن أفقدك.

أكمل كاييسا قائلاً: من المفترض أن تذهب إلى المحكمة اليوم للنظر في القضية، وعلى الأرجح أنّك ستخسرهما وتُزجّ في السجن، أو حتى تُرسل إلى سجن زاليكا. أعتقد أنّك سمعت عن الحال هناك؛ فاحتمال خروج الإنسان منه حياً ضئيل جداً.

بعديّ، دنا السيد كاييسا من والدي، ثمّ نظر في عينيه بالطريقة نفسها التي نظر فيها الموقر جيه جيه إليه؛ وكأنّه يبحث في الزوايا المظلمة من قلبه، قائلاً: لكنني لا أريدك أن تذهب إلى السجن؛ فهناك طريق أفضل يمكنك سلوكه. أنا على استعداد لتمزيق هذه الملفات وإطلاق سراحك. ولكن، عليك أن تعدني بشيء واحد.

قال والدي: ما هو؟

أجاب كاييسا: اتبع طريق الرب.

أجل، وافق والدي لكي يتخلّص من السجن فحسب. وفي واقع الأمر، فإنّ كلام الرجل أثار كثيراً في تفكير والدي؛ إذ لم يشعر بالراحة طوال الليل، ولا حتى في اليوم اللاحق. ثم إنه شاهد حلمًا في أثناء نومه في الليلة اللاحقة، وكان كلّ ما تراءى له هو سواد؛ لا شيء إلاّ مساحة مظلمة لا نهاية لها، فشعر بالارتباك والخوف، ثمّ حُيِّل إليه أنّه أُصيب بالعمى، وأنّه لا يستطيع الخلاص من هذا المأزق. تلا ذلك سماع صوت هادر كأنّه قادم من الجنة، يقول: ما تفعله سيدمرك. الجأ إليّ.

وحين استيقظ والدي في الصباح، كان جسده يرتعش كطائر صغير. كان الحلم والنصائح التي أُسديت إليه في الأسبوع المنصرم رسائل لا يمكن تجاهلها. فأسرع إلى إيقاظ والدتي النائمة، مخاطباً إياها: زوجتي، اليوم سألجأ إلى الرب. لقد رأيت علامات عدّة، وقد حان وقت التغيير.

في صباح ذلك اليوم، وبدلاً من الذهاب إلى العمل مباشرة، عرّج والدي صوب الكنيسة لمقابلة الموقر جيه جيه. كان الواعظ جالساً إلى مكتبه.

قال والدي: لقد حضرت، وأنا على أتم الاستعداد.

لم تدرك والدتي كُنّه ذلك الرجل الجديد الذي أصبح يعود إلى البيت كل يوم بعد العمل مباشرة، والذي أصبح - فجأة - يملك مالاً للإنفاق على الطعام وشراء الدواء لأطفاله. لقد شعرت بفرحة غامرة، لكنّها كانت متوجّسة حيال حظّها الجيد ذلك؛ ما دفعها إلى أن تقول له كلّ ليلة، وعلى مدار أسابيع: تعال إلى هنا، وذلك حال ولوجه الباب، لكي تشم رائحته.

وبينما كان والدي منشغلاً بالترحال والتجارة والشرب، كان أخوه الأكبر، جون، قد أسّس مشروعاً ناجحاً. ففي نهاية الستينيات، وبداية السبعينيات من القرن الماضي، كان الرئيس باندا يبني ضيعةً كبيرة قرب مدينتي ويمبي وكاسونغو، الأمر الذي أوجد فرص عمل كثيرة لساكني هاتين المدينتين. كانت عقود البناء كمناجم الذهب، وكان عمي جون يعرف

بعض المديرين الذين يوظفون المقاولين الفرعيين. فأصبح جون يعمل وسيطاً للتوظيف، ويبحث عن العمّال المهرة والموثوقين لإنجاز العمل. وكان عملاؤه يدفعون له بسخاء؛ نظراً إلى حسن اختياراته التي كانت موفّقة في أغلب الأحيان.

وبعد عمله مع تلك الشركات سنوات عدّة، تمكّن العمّ جون من توفير مال يكفي لإنشاء مشروع يُعنى باستيراد المواد الزراعية، حيث كان يشتري البذور وسماد الذرة من بعض المزارعين المحليين، ثمّ يبيعها لبعضهم الآخر، حتى إنّه كان يملك واجهة صغيرة في المركز التجاري. أحرز جون نجاحاً كبيراً في عمله. وبعد سنوات عدّة، باع محلّه، ثمّ اشترى أرضاً مساحتها تسعة وخمسون هكتاراً من الزعيم ويمبي، وزرعها بالذرة والتبغ من نوع بيرلي؛ وهو نوع من التبغ المعتدل الذي يُترك في الهواء الطلق تحت مظلات يدوية الصنع.

ولما كان أنّ العمّ جون كان يملك ما لا كافيّاً لشراء سماد جيد، فقد كان التبغ الذي تنتجه مزرعته ذا جودة عالية. لم تكن حقوله تحوي أعشاباً ضارّة قطّ. كانت الأوراق النامية خضراء اللون دكّاء، ثمّ ما تلبث أن تصبح بنية كحليب بنكهة الشوكولاتة، تتخلّلها خطوط حمرة دقيقة بعد التجفيف. كان تبغه يباع بسعر مرتفع كلّ عام في مزاد شركة أوكشن هولدينغز المحدودة في ليلونغوي، حيث كان المزارعون يبيعون حزم المنتوجات التي يبلغ وزنها مئة كيلوغرام في ساحة المزاد. يُذكر أنّ الحزمة الجيدة من التبغ قد تساوي ثمن سبعة عشر كيساً من السماد، الأمر الذي يساعد المزرعة على الاحتفاظ بقوتها إذا كان الطقس جيداً.

في عام 1989م (كنت في عامي الأول)، جاء العمّ جون إلى دوا لحضور حفل خطبة أحد أصدقائه، وعرّج لزيارتنا. وفي المساء، اصطحبه والدي في نزهة قصيرة خارج المنزل، ودار بينهما الحوار الآتي:

– لمّ لا تعد إلى القرية، وتعمل معي في الزراعة؟ فالأمور تسير هناك على نحو طيب.

– ذلك صحيح يا جون. لكنّ الزراعة تتطلب وقتاً طويلاً. لقد اعتدت العمل في مجال التجارة، فكيف لي أن أبدأ مهنة جديدة؟

- صحيح أنها تستغرق وقتاً طويلاً. ولكن، إذا استثمرته بقليل من المال فإن العائدات تكون مُجزية. انظر إلى ما أجنه من التبغ. من المستحيل تحقيق مثل هذا الربح من التجارة. كم تريح شهرياً من الأرز والملابس المستعملة؟ 5% 9
- 4%. لن أتمكن من إطعام أطفالي عما قريب؛ ستعاني تجارتي إن أنفقت المال على الطعام.
- إذن، عُد معي إلى الوطن يا أخي الصغير. هناك مكان كبير ينتظرك هناك.
- وفي هذه الأثناء، أخبر والدي العمّ جون أنه أقلع عن الشرب، وأنه لجأ إلى الرب.
- إذن، فكّر في هذه الخطوة بوصفها فرصة جيدة لبداية جديدة. عُدّها علامة.
- حسناً، لقد أقنعتني.

كان لعائلتنا ثلاثة أطفال حينها (وُلدت شقيقتي عائشة قبل مدّة قصيرة)، ووجد والدي عَرَضَ عمّي فرصةً سانحة لا تقاوم. وبعد أسابيع عدّة، وبيع الكشك الموجود في السوق، حزمنا متاعنا (الملابس، والقدور والأواني، ومذياع العائلة) على ظهر حافلة تابعة لشركة مالاوي المتحدة للنقل، ثمّ سارت بنا الحافلة أربع ساعات شمالاً، وصولاً إلى مركز ويمبي التجاري، حيث كان في انتظارنا بعض الأقارب مرحّبين بقدمونا. وقد ساعدونا على نزول الطريق المؤدي إلى قرية ماسيتالا، وصولاً إلى البيت الذي يتألّف من غرفة واحدة بجوار منزل العمّ جون. وبذا، أصبح والدي مُزارِعاً، ومن هنا بدأت طفولتي.

بعد وقت قصير من وصولنا، حصل العمّ جون على أرض إضافية من الزعيم ويمبي، فأعطى والدي قطعة أرض مساحتها هكتار واحد، تبعد عن البيت نحو كيلومترين. لقد أصبح بإمكاننا الآن زراعة تبغ بيرلي هناك، ثمّ يبعه، فضلاً على زراعة الذرة والخضراوات (الذرة المشار إليها أنفأ هي الذرة البيضاء). لن تصدّق كمّ المعلومات الذي ستعرفه عن الذرة حتى نهاية القصة.

عندما وصلنا، كان العمّ جون مشغولاً بزراعة التبغ، وقد مثّل ذلك المهمة الأولى التي أسندها عمّي إلى والدي؛ فكان يستيقظ باكراً قبل صياح الديك، ثمّ يتجه نحو المستنقعات

العشبية في الوادي، التي كانت تُسمّى دامبو؛ إذ تحتاج بذور التبغ إلى كميات كبيرة من المياه كي تتمكن من شقّ طريقها عبر التربة، ما يفسّر سبب لجوء كثير من المزارعين إلى زراعة مستنبتات بجانب الدامبوس. كان لكلّ مزارع قطعة أرض مخصصة به قرب المستنقع (لم يكن هناك سجلات رسمية، إنّما مجرد قطع أرض يعرف الجميع لمن تعود ملكيتها). لم تكن ميزة تلك المستنقعات أنّها تحوي الماء فحسب؛ بل كانت تربتها عميقة دكّاء غنية بالمواد العضوية التي تلزم فساتل التبغ لتنمو قوية.

وقد جرت العادة على إعداد المستنبتات قبل موسم المطر مباشرة حين تكون الشمس في أشدها. كان هذا العمل شاقاً موحلاً، الأمر الذي جعل والدي يشعر بالإرهاق سريعاً، ويحلم (في تلك الأسابيع الأولى) بكشكه في المركز التجاري، وكيف اقتصر عمله آنذاك على الجلوس والتحدث إلى أصدقائه وزبائنه، وكيف كان يترك الكشك ساعة للاجتماع بعائلته وقت الغداء، حتى إنّ كان يأخذ قيلولة قصيرة قبل العودة إلى العمل. كان من السهل عليه إخبار شقيقه أنّه أخطأ في القدوم إلى هنا، ثمّ العودة إلى دوا، لكنّ والدي واصل العمل وضغط على نفسه. لقد شاهد مقدار المال الذي يجنيه العمّ جون، وأراد أن يصل إلى ما وصل إليه أخوه. كان يعمل بجدّ، ولوقت متأخر في بعض الأيام، حتى إنّ شقيقه كان يبحث عنه، ظاناً أنّه تعرّض وغرق في الدامبو.

وكثيراً ما كان يقول: استرح يا أخي، ستكمل غداً. حافظ على قوتك، فسيأتي يوم تكون فيه بأمس الحاجة إليها.

فيردّ: بعد قليل. كان والدي يقولها وهو مُغطّى بالوحل من رأسه إلى أخمص قدميه.

عندما زار العمّ جون دوا، وذكر أنّ لديه مكاناً كبيراً لوالدي، لم يكن يقصد مكان السكن. لذا، فسرعان ما أصبح منزلنا مكتظاً بنا الخمسة.

بعد عشر ساعات من العمل تحت أشعة الشمس، كان والدي يعود إلى البيت، ثمّ يواصل العمل في بناء بيتنا الجديد. وكان يقضي العطل الأسبوعية أيضاً على المنوال نفسه. وقد

استخدم الطين والعشب في صنع الطوب، بضغطهما داخل قالب خشبي طوله نحو خمس وسبعين سنتماً.

كان والدي يحضر حفراً عميقة قرب الحقول، ويفحص فيها بجسده كله؛ لاستخراج الطين. وقد عمد إلى غَرْفِ دلاءٍ من الطين زنة الواحد منها مئة باوند، ثمَّ رفعها على كتفيه، ثمَّ الصعود على درجات حفرها في الجدار بمعول. بعد ذلك، كان يجر الدلاء على عربة مسافة كيلومترين عائداً إلى البيت، حيث يلقاها هناك، ثمَّ يعاود الكرَّةَ.

بعد الانتهاء من صنع الطوب، كان والدي يمضي أياماً في الوادي وهو يقطع عشباً ذا سيقان طويلة، ليكوِّمه بعدها على شكل حزم مستديرة. وكان العمَّ جون يُرسل أحياناً بعض العمَّال من الحقول المجاورة للمساعدة في البناء، لكنَّ والدي هو مَنْ كان يقوم بجُلِّ العمل وحده.



صورة لي في قرية ماسيتالا أيام الطفولة. كنت - دون شك - على وشك التسبب في المتاعب لإزعاج والدي.

وبعد شهرين، أصبح لدينا منزل مكوّن من غرفتي نوم. وقد صرّح والدي في وقت لاحق بأنّ ذلك كان أصعب شيء قام به في حياته.

أحسنت يا أخي. قالها العمّ جون في أثناء مروره، ممازحاً والدي الذي كان على وشك الانهيار من التعب. إنّه منزل جيد. يحتاج الرجل إلى منزل جيد كما تعلم.

سكّنا ذلك المنزل ثلاث سنوات إلى أن ضاق بعائلتنا المتنامية؛ فبعد وقت ليس بالطويل، أصبحت العائلة تضم خمسة أطفال، منهم صبي واحد فقط هو أنا. وفي أثناء تلك الحقبة، كان والدي قد كسب مالاً كافياً من الزراعة مكّنه من استخدام بعض الرجال لبناء مبنيين جديدين. ضمّ المبنى الأول غرفة معيشة وغرفة نوم مع حمام، إضافة إلى مخزن للحبوب. وكان يتعيّن على الشخص عبور ممر ضيّق للوصول إلى المبنى الآخر، الذي ضمّ مطبخاً وغرفة نوم منفصلة لي ولشقيقتاتي.

أصبحت غرفة نومي بمنزلة حصن لي يقيني شرّ الفتيات المشاكسات، ومخبأً أختلي فيه مع أفكارِي. وأصبحت أحلام اليقظة تراودني كثيراً، ربّما لأنّني أصبحت أكبر سنّاً، وبدأت أشعر بسخافة القصص الشعبية التي كنت أسمعها في طفولتي، مقارنة بالأمر الرائعة التي تدور أحداثها في المزرعة؛ وتمثّل أشياء واقعية وخرافة أكثر من أيّ خيال يمكن لأحد نسجه؛ حتى والدي.

كان هنالك عامل موسمي يستخدمه العمّ جون للمساعدة على أعمال الحصاد والزراعة، يُدعى السيد بهيري، وكان هذا العامل يتمتع بقوة خرافية؛ إذ لم يكن العمّ جون يستعمل الجرّارات لتنظيف الأرض وإزالة الأشجار، إنّما يُرسل بهيري الذي كان قوياً لدرجة أنّه كان يتنقل بين شجرة وأخرى، قالعاً إيّاها من جذورها كما لو كانت مجرد أعشاب.

كان الجميع يعرف أنّ قوة بهيري مردها نوع من السحر يُدعى «مانغولوميرا»، يمنح الإنسان قوة خارقة. كان مانغولوميرا (نوع من اللقاح ضد الضعف) أفضل وسيلة للدفاع عن النفس. وكان أقوى السحرة في المنطقة هم القادرين فقط على التحكّم في تركيبة هذا اللقاح (مرهم يُصنّع من عظام الفهود والأسود بعد حرقها وطحنها، ويضاف إليه خليط من الجذور والأعشاب). وتتمثّل طريقة استخدامه في فرك الدواء داخل شقوق تُعمل في براجم

الأصابع بوساطة شيفرة سحرية عادة. وبمجرد أن يسري المانغولوميرا في دمك فإنّ مفعوله لا يزول أبداً، بل إنه يزيدك قوّة على قوّة. وحدهم الرجال الأشداء هم القادرون على تحمّل هذه القوّة التي إمّا أن تزيد أضعافاً مضاعفة، وإمّا أن تدمّر صاحبها بسرعة.

كان بهيري قويّاً لدرجة أنّ أيّ إنسان أو حيوان لم يكن يجرؤ على تحديه. فبينما كان يعمل في الحقول ذات مرّة، إذا بحراشة (أفعى سامة) سوداء تزحف على قدمه وتتأهب للهجوم. لكنّ بهيري لم يخف منها؛ إذ أخذ ساق عشب تشبه السوط، ثمّ جلد الأفعى على ظهرها شالاً حركتها، ثمّ أمسكها من رأسها ونزع شوكتها. وقد سرت مقولة بين الناس أنّه كان يحمل حراشة أخرى في جيبه بوصفها تعويذة، وأنّها كانت خائفة منه لدرجة أنّها لم تجرؤ على لدغه.

لكنّ قوّة بهيري كانت كبيرة وتزداد باستمرار، حتى إنّها جعلته يرغب في الشجار دائماً. وكان على والدي التدخل عند حدوث ذلك.

ففي ظهيرة أحد الأيام، كنت أعب في الساحة حين سمعت ضجة مخيفة قادمة من الحقول، كأنّها زئير عشرين فهداً مجتمعين. ذهبت إلى هناك لأجد بهيري وجهاً لوجه مع عامل آخر يدعى جيمس. كان بهيري يتنفس بحدّة وعلى وشك الهجوم. تحوّلت يداه إلى قبضتين، وبرزت شرايين ذراعيه مثل جذور الأشجار. وكان عندما يفتح فمه ويصرخ، يُخيّل أنّ الأرض من تحتنا ترجف خوفاً. قال أحدهم: إنّ بهيري كان قد أعطى جيمس مالاً؛ لشراء بعض الحوائج من كاسونغو. لكنّ جيمس كان أمياً، فغشّه البائعون، وسلبوه المال.

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ بهيري يكيل اللكمات لجيمس. كان بهيري قصيراً سميناً، في حين كان جيمس طويلاً وصبلياً. تبادل الاثنان اللكمات، وصمد جيمس بعض الوقت. لكنني كنت أدرك أنّها مسألة وقت قبل أن ينفجر مانجولوميرا بهيري، ويسحق جيمس المسكين.

وفي هذه الأثناء، سمع والدي الجلبة، فجاء مسرعاً لفضّ النزاع؛ خوفاً على حياة جيمس. ومع أنّ مفعول «المانغولوميرا» لا يتلاشى أو يضمّر، فإنه يمكن تحييده مدّة قصيرة باستخدام أوراق خُضر من نبتة البطاطا الحلوة. هل تعرف كيف يضعف (السوبرمان) عند

مشاهدة البلورات الخُضِر اللامعة؟ الأمر ذاته ينطبق على الناس الذين يتعاطون السحر والبطاطا الحلوة، لا أعرف لماذا!

على أيِّ حال، عندما شاهد بهيري والدي قادماً، صرخ مستنجداً: سيد كامكوامبا، أرجوك... بعض الأوراق لرأسي! لا أريد قتل هذا الرجل!

لم يجد والدي أوراقاً قريبة، فأسرع باتجاه بهيري ولفّ ذراعيه حوله. بدأ بهيري يركل ويصرخ كحيوان رُبط بحبل، لكنّ والدي تمكّن من تثبيته بإحكام، ثمّ أخذه إلى حديقتنا، وقطف بعض السيقان الطويلة ولفّها على رأس بهيري ومرفقيه. وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى هدأ قلب بهيري، ثمّ انهار من شدّة الإرهاق. وفي واقع الأمر، فقد أصبحت أصدّق القصص التي سمعتها عن البابا وعن قوّته الخارقة، بعدما شاهدته يصارع شيئاً خطيراً مثل المانجولوميرا.

وفي صباح اليوم اللاحق، وصل بهيري إلى مكان العمل وهو على ما يرام. لكنّ جيمس تغيّب بحُجّة المرض مدّة أسبوع. فقد كانت يده وذراعاها منتفختين لدرجة أنّه لم يقوَ على الحركة. أمّا ساقاه فقد عجزتا عن حمله، ولم يكن ذلك نتيجة ضربات بهيري؛ فقد شاهدت جيمس يدافع عن نفسه بضراوة. لكنّه تأثر السحر الذي يتعاطاه بهيري؛ إذ كان قوياً لدرجة أنّه أثر في جيمس كما السم.

كان لبهيري ابن أخ يُدعى شاباني، وكان هذا يتباهى بأنّه سينغانغا حقيقي، وأنّه يملك عقار المانغولوميرا. كنت أنا وجليبرت نعتقد أنّها مجرد ادّعاءات، لكنّنا لم نتأكد تماماً. كان شاباني فتى صغيراً مثلنا، ولم يكن قوياً جداً، لكنّه كان يتباهى بنفسه كرجل يملك عضلات منتفخة كتّل النمل. وقد أوقعنا ذلك الأمر في حيرة. لما لم يكن شاباني لم يكن يرتاد المدرسة، وفضّل العمل في الحقول مع عمه، فقد كان يتسكّع عادة حول بيتنا عند عودتي ظهراً.

كنت في التاسعة من العمر حينها، ولم أكن قوياً جداً. كما لم أكن رياضياً أيضاً. وعلى الرغم من حبي الجارف لكرة القدم، بإنني كنت أقضي معظم المباريات على مقاعد

الاحتياط. وكان الطلاب المتمترين يلاحقونني ويعذبونني في ساحة المدرسة. لقد تعرّضت في تلك الحقبة لإذلال كبير.

في أحد الأيام، أخذني شاباني جانباً بعد سماعه إحدى قصصي المثيرة للشفقة، ثمّ قال لي: إنك تشكو من هؤلاء المتمترين يومياً، وقد سئمت من سماع ذلك. يمكنني منحك بعض المانغولوميرا. بوسعك أن تصبح أقوى صبي في المدرسة. سيخافك الطلاب الآخريين كافة.

كان الحصول على قوى خارقة هو أحد أحلام اليقظة المتكرّرة دون شك. وقد تخيلت نفسي - أكثر من مرّة - عملاقاً في ملعب كرة القدم، ولديّ رجّلان ضخمتان كمنصّات الصواريخ. لو استخدمت المانغولوميرا، فسأتمكّن من دحر المتمترين بلمسة واحدة، وسيبولون في سراويلهم من شدّة الخوف.

لطالما حدّرنا والدي من العبث بالسحر. وها هو ذا شاباني يقف هناك الآن، مبتسماً كالنمس، وأتخيل والدي يرمقني بنظرة شزر، وهو واقف بجوار تمثال السيد المسيح. فهزرت رأسي لطرده التخيلات، وبدأ فمي يتحرّك، قائلاً: حسناً، اقبل. ثمّ سمعت شاباني يقول: سنكمل العملية بين أشجار اليوكالبتوس خلف بيت جيفري. قابلني هناك بعد ساعة، واجلب معك عشرين تامبالا. كنت أول الواصلين إلى الغابة، فانتظرت في الظلال المعتمة، وذهني مليء بكثير من الاحتمالات. وفجأة، ظهر شاباني من بين الأشجار. كان يحمل كيساً أسود ذا قاعٍ متدلّ، يحوي شيئاً ثقيلاً، شيئاً قوياً.

سألني: هل أنت مستعد؟

قلت: نعم، أنا مستعد.

قال: إذن، فلتجلس.

جلسنا على التراب وعلى أوراق الشجر في حين فتح هو الكيس.

قال: سنبدأ بيدك اليسرى؛ نجرح البراجم، ثمّ ندخل الدواء في شرايينك، ثمّ نفعل

الشيء نفسه بيدك اليمنى.

قلت: لماذا اليسرى أولاً؟

قال: أنت من أصحاب اليمين يا رجل. يدك اليمنى هي القوية. أنا أريد أن أمنحك قوة متساوية لكي تكون لكلماتك قاضية من الجهتين كليهما.
قلت: آه، فهمت.

دسّ يده في الكيس، ثمّ أخرج علبة ثقاب، قائلاً: في هذه العلبة عظام فهود وأسود مطحونة، إضافة إلى جذور وأعشاب فاعلة.

ثمّ أخرج حزمة ورق تحتوي على مزيد من الرماد الأسود، وبدأ يخلطها بالمواد الأخرى، وهو يقول: المواد الأخرى نادرة جداً، وهي موجودة في أعماق المحيط فقط.

قلت: كيف جلبتها إذن؟

قال: أنا لست شخصاً عادياً يا فتى. لقد حصلت عليها من قاع المحيط.

قلت: حسناً.

قال: بقيت هناك ثلاثة أيام كاملة. لو أردت لأخذت كل شخص في قريرتك المجنونة هذه، ووضعتة في وشاحي، ثمّ قذفت به من على كتفي. لا تعبت معي يا صغير. إذا أردت الحصول على هذا النوع من القوة، فيتعين عليك دفع كثير من المال. ما أمنحك إياه الآن هو مجرد جرعة صغيرة.

بعد ذلك، أخرج شفرة من دون أن أراه حتى ظهرت فجأة، وقبل أن أدرك ما يحدث، أمسك يدي اليسرى، ثمّ جرح برجمي الأول.

صرخت: آه.

قال: اثبت، ولا تبك! لن يعطي ذلك مفعولاً إذا بكيت.

قلت: أنا لا أبكي.

بدأت براجمي تتورّم واحداً تلو الآخر، وانهمر الدم الفاقع على يدي. عندئذٍ، أخذ حفنة من المسحوق بأصابعه، وفركه على جروحي الدامية. كانت تلسع كفحم ساخن. ثمّ تنفّست الصعداء حين فرغ من يدي الاثنتين.

قلت: أتراني بكيت؟ هل تظن أنه سيعمل؟

قال: لاشك في ذلك.

قلت: متى سأصبح قوياً؟

فكَّر هُنيهة، ثم قال: اصبر ثلاثة أيام حتى يسري المزيج في عروقك. ستحس بذلك

متى أصبح جاهزاً.

قلت: ثلاثة أيام.

قال: نعم، ومهما فعلت؛ فلا تأكل البامية أو أوراق البطاطا الحلوة.

قلت: سأتذكر ذلك.

أضاف: أمر آخر، لا تُخبر أحداً.

خرجت من الغابة، ناظراً إلى جروحي ويدي المتفحمتين اللتين بدأتا تنتفخان.

لكنهما بدتا قويتين. تخيلت ذراعيّ ثقيلتين تتأرجحان على جانبيّ كمقبضي معول ضخمين.

كما ملئت رئتاي جرعة ثقة.

اختبأت تلك الليلة في غرفتي ولم أتحدث إلى أحد. ثمّ خلدت إلى النوم وقد راودني

شعور جيد. قلت لنفسِي: أنا رجل كبير الآن، خلدت إلى النوم، رجل كبير.

بدا الانتظار لثلاثة أيام وقتاً طويلاً، لكنّ الظروف كانت موالية. فقد كُنّا في الإجازة

الصيفية، وكان من المفترض أن أذهب إلى دوا صباح اليوم اللاحق؛ لقضاء بعض الوقت

برفقة جدّي وجدّتي. كانت دوا المكان الأمثل لصقل قوتي قبل العودة إلى بيتي وأنا شخص

آخر أتمتع بقوى خارقة.

مرّت الأيام الثلاثة ببطء، وظننت أنني سأموت من الملل.

وعلى الرغم من حبي الشديد لجدّي وجدّتي، فإنه لم يكن هنالك من أمر لأفعله في

بيتهما. وكما ذكرت سابقاً، كانت جدّتي امرأة قوية، صنعت طوبها بنفسها، وكانت كثيراً ما

تسند إليّ الأعمال.

في اليوم الرابع، استيقظت وأحسست بالتغيّر حالاً. جلست على السرير، وشعرت بأنّ ذراعِي أخفّ من ذي قبل، لكنّهما كانتا قاسيتين كجذوع الأشجار. كانت يداي صلبتين كالصخر. خرجت من البيت، وبدأت أركض في الطريق؛ لأختبر مدى سرعتي. وكان إحساس الرياح التي تلمح وجهي مختلفاً عمّا قبل بكلّ تأكيد.

في ظهيرة ذلك اليوم، دعاني خالي مادا إلى مشاهدة إحدى مباريات دوري كرة القدم التي تقام على ملعب البلدة، فلبّيت الدعوة على أمل اختبار قواي. جمعت المباراة فريقي دوا الطبي بالزراعي. كان المكان غاصّاً بالجمهور كما هو متوقّع. وقد جرت العادة أن تعتنى النسوة بالأطفال على إحدى جهات الملعب، في حين يربض الرجال والفتية قرب بعضهم بعضاً على الجهة المقابلة، وهم يدخنون السجائر، ويكيلون للحكام الشتائم.

لم أكن مهتماً كثيراً بالمباراة؛ فقد كنت أبحث عن صبي بين الجمهور، حتى تمكّنت من مشاهدة أحدهم (بمثل عمري تقريباً) يقف عند زاوية الملعب البعيدة. بدا لي أنّه وحيد، لذا قمت بحركتي. تجاوزت الحشود متجهاً إليه، وفي أثناء مروري من أمامه، دست على قدمه الحافية بنعلي.

صرخ وهو يتقافز متألّماً: معذرة، لقد وطأت للتو على أصابع قدمي!.
نظرت إليه ببرود.

أقول إنك وطأت على أصابع قدمي. لقد ألمني ذلك.

قلت: إذن، ماذا تريد؟

قال: ألا ترى أنّ موقفك ينمّ عن وقاحة؟

قلت: وماذا ستفعل حيال ذلك؟

قال: ما الذي سأفعله؟

قلت: قد سمعتني. لمّ لا تفعل شيئاً حيال ذلك أيّها المغفل؟

قال: حسناً، سأضربك.

قلت: هذا ما كنت أمل سماعه.

بدأنا ندور في حلقة مفرغة، ولم أنتظر كثيراً. فقد أطلقت وابلًا من اللكمات السريعة لدرجة أن ذراعيَّ أصبحتا كالخيال أمام عيني. لكمته من اليمين واليسار ومن أسفل، وكانت يداي الحديديتان تتحرَّكان بسرعة لدرجة أنني لم أحسَّ بهما تهشَّمان وجهه. لم أرد أن أقتل هذا الفتى المسكين (فقد نسيت أوراق البطاطا)، فتراجعت إلى الخلف مبتعداً عنه. لكنني فوجئت أنه لا يزال واقفاً على قدميه. ليس ذلك فحسب، بل كان يضحك أيضاً.

وقبل أن أتمكن من توجيه لكمة أخرى، شعرت بألم شديد بعيني اليمنى؛ وقد تكرر هذا الشعور أكثر من مرّة. وسرعان ما وجدت نفسي مُلقًى على الأرض، وقد انهال بالضرب على وجهي ورأسي، كما داس قدمه على بطني. وفي الوقت الذي اندفع فيه عمي نحونا وأبعده عني، كنت أبكي وأنا مُغطى بالغبار.

صرخ عمي: ما الذي تفعله يا ويليام؟ أنت أعقل من أن تدخل في شجار. حجم هذا الفتى ضعف حجمك!.

شعرت بإهانة بالغة، فركضت إلى بيت جدي، وبقيت داخله حتى حان وقت عودتي إلى المنزل. وحالما وصلت إلى هناك، بحثت عن شاباني وواجهته، قائلاً: إنَّ سحرك لا يعمل! لقد وعدتني بالحصول على القوة، لكنني تعرّضت للضرب في دوا بدلاً من ذلك!.

قال: إنّه يعمل بالتأكيد. قالها، ثم فكّر للحظة: اسمع، هل استحمت يوم أعطيته لك؟.

قلت: نعم.

قال: ذلك هو السبب إذن. إذا تناولت دوائي، فلا تستحم أبداً.

قلت: لم تذكر ذلك قبلاً.

قال: لقد فعلت.

قلت: ولكن...

كما ترون، فقد تعرّضت للخداع. تركتني تجربتي الأولى والوحيدة مع السحر بعين مدماة ويدين تبضان ألماً من الدواء الفاسد. قلت لنفسي: إذا كنت محظوظاً فقد تصيبهما

العدوى وتسقطان. ثم بدأت أتخيّل نفسي وأنا في السوق، متسوِّلاً، مقطوع اليدين، لا يمكنني حتى استخدام الكنيف (الحمّام). سيطر عليّ الخوف من ذلك لساعات في وقت ما. أوّكّد لكم أنّ حدوث مثل هذا الأمر سيكون رهيباً!



obeikanda.com